Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

آفاق البلاغة والكلام البليغ عند الجاحظ في (البيان والتبيين)

الدكتـور رمضان بهـداد
جامعة يزد ـ كلية الآداب

البلاغة من المصطلحات التي وضعت بعد الاسلام ويعود تاريخها الى أواخر العهد الاموي وأوائل العصر العباسي وكانت في البداية تطلق على معنيين أولهما تأليف الكلام على ما تقتضيه الحال من المتكلم والسامع والزمان والمكان والمعنى وثانيهما تأليفه في مستوى اعلى وارفع من لغة المحادثة شريطة كون المعنى شريفاً يقتضي له ذلك التأليف الرفيع واستمر هذان المعنيان للبلاغة جنباً الى جنب الى القرن السادس الهجري حينما ظهر السكاكي فحاول في كتابه مفتاح العلوم ان يوفق بين هذين المعنيين واستمد في ذلك من تفكيره الفلسفي فجعل معنى البلاغة منحصراً في معنى واحد وهو تأليف الكلام على مقتضى الحال ناظراً الى المعنى الثاني كالتابع للمعنى الاول والمكمل لشروطه. إلّا ان ما أورده بهذا الصدد متكلف غير مقبول وفي رأينا ان السكاكي كان بامكانه التوصل الى هذه العلاقة بشكل اسهل واقرب وهو ان يقول: ان للبلاغة معنيين عاماً وخاصاً ومعناه الخاص هو الذي يناسب حالة خاصةً من حالاته في معناه الاول أي كلام يناسب معنى رفيعاً يشتمل عليه فيستدعي نوعاً من التأليف شريفاً رفيع المستوى.

لا ادري أفي كتاب قرأتُ أم في مقال ان أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ[1] قد جمع في كتابه البيان والتبيين آراء من عاصره من العرب والعجم والادباء والمفكرين حول تعريف تفسير البلاغة[2] وأن من تصدّى لاستخراج تلك الآراء المختلفة وقاس بعضها مع بعض ربما ظفر بنتائج هامة في هذا التفسير.

لفظة البلاغة بمعناها الاصطلاحي الادبي تبدو كأنها وُضعت بعد الاسلام من أواخر العهد الاموي الى أوائل العصر العباسي حينما تعرّف العرب والمسلمون لاول

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

مرة الى ترجمات من الآثار العلمية والادبية لليونان وبلاد الروم وكذلك ايران والهند، اذ انّ تفسير البلاغة ـ كما هو معلوم ـ كان معروفاً وشائعاً عند اليونانيين والرومان.

وقد جاء في كتاب «تاريخ الرومان» لآلبرماله انه بعد فتح الرومان بلاد اليونان رحلت جماعات من اليونانيين الى روما اسرى ومهاجرين وتصدوا لاشغال منها تعليم علم البيان[٣] كما جاء في موضع آخر من الكتاب نفسه ان الأسر الكبيرة من الرومانيين كانوا يرسلون اطفالهم عادةً لتلقي دروس فن البيان من اساتذة هذا الفن الى جزيرة رودس[٤] ويقول عن شيشرون خطيب الرومان الشهير: انه كتب في قسم الادب من آثاره عدة رسائل في موضع الفصاحة والبلاغة[٥].

يبدو ان المسلمين عند ترجمتهم لتأليفات من هذا القبيل وضعوا لفظة البلاغة مكان اسم هذا الفن في اللغتين اليونانية والرومانية واصطلحوا عليها في لغتهم العربية ومن الالفاظ التي تعني هذا المعنى في اللغة الانجليزية اليوم لفظة «Eloquence» وشرحها القاموس «Webster» هكذا قائلاً: جاءت هذه اللفظة من اصل فرنسي ولاتيني وهي مركبة من «E» بمعنى الخارج و«Loqui» بمعنى القول، فيكون معناها اللغوي الكلام الخارجي ولعلهم أرادوا بها الاسلوب الخاص من الكلام الذي يُلقونه في المجامع والمواسم العامة وهو اعلى وارفع في مستواه من الذي يستخدمونه في لغة المحادثة والحوار العادي فكانت لفظة البلاغة صالحةً لان تقع موقع هذا الاصطلاح في الآثار الادبية المترجمة عن اليونانية أو الرومانية ويدلنا على ذلك ان هذه اللفظة بهذا المعنى الاصطلاحي الادبي لم ترد في القرآن الكريم وانما جاء فيه في موضع واحد «قولاً بليغاً» وهو آخر الآية ٦٣ من سورة النساء، ومعنى القول البليغ فيها كما يدل عليه المفهوم العام للآية هو الكلمة الحكيمة الواعظة لا المعنى الاصطلاحي الخاص وإلّا لكان ينبغي للقرآن الكريم ان يمتدح بلاغة آياته ويصفها بها، كما أني لم اجد هذا الاصطلاح مهما تفقدته في الاشعار والخطب المروية عن العصر الجاهلي وبعده الى نهاية العصر الاموي. ولم اجد في المعاجم المفصّلة للغة العربية امثال لسان العرب وتاج العروس ذيل هذه المادة بيتاً أو قولاً من الجاهلية أو صدر الاسلام والعهد الاموي أو حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وآله أو صحابته والتابعين استُشهد بها على معنى البلاغة الاصطلاحي خلافاً لما هو معمول به في هذه التأليفات من الاتيان بشواهد قديمة ذيل كل مادة لغوية تزيدها وضوحاً في المضمون والمعنى وهذا يجعلنا نشك في صحة ما نُسب الى عامر بن الظرِب العَدواني[٦] من كبار رجال العصر الجاهلي انه سأل حمامة بن رافع السدوسي: «من أبلغ الناس؟»[٧]. كما نشك أيضاً في ما نسبوا الى معاوية بن ابي سفيان انه سأل هذا السؤال من عمرو بن العاص[٨].

نعم روى الجاحظ عن ابن الاعرابي[٩] ان معاوية قال لصحار بن عياش العبدي[١٠]: «ما هذه البلاغة التي فيكم؟ قال صحار: شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا... فقال له معاوية: ما تعدّون البلاغة فيكم؟ قال: الايجاز...»[١١]. وهذه الرواية ربما تدل على ان البلاغة كانت تُطلق في ذلك العصر على مضامين من الحكمة يصوغونها في كلمات قصار مستحسنة أي نفس المعنى التي اشرنا اليها في معنى القول البليغ من آخر الآية ٦٣ لسورة النساء.

ويؤكد هذا الاحتمال ما جاء في كتاب نهج البلاغة من كلامٍ لأمير المؤمنين عليه السلام قبل وفاته ما نصه: «... لِيعِظكم هُدُوّي وخفوتُ اطراقي وسكون اطرافي فانه أوعظ للمعتبرين من المَنطِقِ البليغِ والقولِ المسموعِ...»[١٢]. والمنطق البليغ في كلامه عليه السلام كما هو ظاهر، معناه الكلمة الحكيمة.

واما ما جاء في كتاب الصناعتين لابي هلال

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

العسكري من كلامه عليه السلام في تعريف البلاغة وهو: «البلاغة ايضاح الملتبساتِ وكشف عُوار الجهالات باسهل ما يكون من العبارات»[١٣]. فانا شاكون فيه ان يكون له عليه السلام وخاصةً انه ما جاء في كتاب نهج البلاغة من كلامه عليه السلام، فبما قدمنا نظن ظناً ان البلاغة كاصطلاح أدبي ظهرت في أواخر العهد الاموي أو أوائل العصر العباسي قالوا: ان سالماً مولى هشام بن عبد الملك كان قد ترجم «لهشام» بعض رسائل ارسطاطاليسَ[١٤] ولربما كانت أحدى تلك الرسائل أو عدد منها في فنون الادب والبلاغة والبيان.

وروى عن ارسطاطاليس في تعريف البلاغة انها حسن الاستعارة[١٥]. كما نُسب كلام في هذا المعنى الى خالد بن صفوان[١٦] وكان من ندماء هشام بن عبد الملك[١٧]. ويبدو من هاتين الروايتين ان كثيراً من المصطلحات الفرعيّة في فن البلاغة كالاستعارة والتشبيه والتمثيل والكناية ايضاً هي مرادفات اساميها في اللغتين اليونانية والرومانية، وضعها المترجمون تدريجياً منذ أواخر العهد الاموي وينبغي هنا ان لا ننسى دور الآثار المترجمة عن بلاغة الفُرسِ الايرانيين، يقول الجاحظ: وقد علمنا ان أخطب الناس الفرس وأخطب الفرس اهل فارس واعذبهم كلاماً وأسهلهم مخرجاً وأحسنهم دلاً وأشدهم فيه تحنّكاً اهل مرو وأفصحهم بالفارسية الدريّة وباللغة الفهلويّة اهل قصبة الاهواز... قالوا: ومن أحبَّ ان يبلغ في صناعة البلاغة ويعرف الغريب ويتبحر في اللغة فليقرأ كتاب «كاروند»، ومن احتاج الى العقل والادب والعلم بالمراتب والعِبَر والمثلات والالفاظ الكريمة والمعاني الشريفة فلينظر في كتاب سير الملوك فهذه الفرس ورسائلها وخطبها والفاظها ومعانيها[١٨].

يبدو أن الآثار المترجمة من اليونانية والرومانية واحياناً الهندية كان بعضها في فن البلاغة كرسائل شيشرون وبعض رسائل ارسطاطاليس التي ذكرناها آنفاً وصحيفة بهلة الهندي التي سنشير الى محتواها فيما بعد وبعضها الآخر انما كانت تحتوي على الاقوال البليغة الحكيمة كالتي نقلت عن بعض فلاسفة اليونان واما ما نُقل عن الفارسية فانها لم تكن إلّا الاقوال الحكيمة مثل ما روي عن بزرجمهر الحكيم وليس بين ايدينا دليل نعزو به الى الفارسيين كتاباً أو صحيفةً في فن البلاغة.

وما قلناه ليس يعني ان العرب قبل العصر الاموي ما كانوا يعرفون البلاغة بل كانوا يعرفونها ويستخدمون فنونها في كلامهم بشكل طبيعي إلّا ان ترجمة آثار الاجانب جعلتهم ينظرون الى هذه الفنون نظراً علمياً عارفين بها وبما لها من الاثر البعيد النافذ في الكلام.

اذا تأملنا النظرات والآراء المختلفة التي وردت في كتاب الجاحظ لمعنى البلاغة رأينا ان المعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة بعد جريانها على الالسن لم يكن معروفاً كفن ادبي جامع ومستقل بمسائله وفروعه الى زمن بعيد وحتى في عصر الجاحظ وبعده بسنين وان كل واحد من العارفين بها انما عرف فصلاً أو فرعاً منها وسمى نفس ذلك الفصل أو الفرع البلاغة كما عرفها بعضهم بالايجاز[١٩] وبعضهم بالوصل والفصل[٢٠] وبعضهم بالاستعارة[٢١] وبعضهم بما تقتضيه الحال[٢٢].

روى الجاحظ عن رجل يسمى عمر الشمري: «قيل لعمرو بن عبيد:[٢٣] ما البلاغة؟ قال: ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيك، قال السائل: ليس هذا اريد قال: من لم يُحسن ان يسكت لم يحسن ان يستمع ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول، قال: ليس هذا اريد قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إنا معشر الانبياء بكاء» (قليلو الكلام) قال السائل: ليس هذا اريد قال: كانوا يخافون من فتنة القول ومن سقطات الكلام ما لا يخافون من فتنة

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

السكوت ومن سقطات الصمت، قال السائل: ليس هذا اريد قال عمرو: فكأنك انما تريد تخيّر اللفظ في حسن الافهام قال: نعم...»[٢٤]. في هذه الرواية ورد في تعريف لفظة البلاغة كما نلاحظ معان شتى متفاوتة والذي له صلة بمعناها الاصطلاحي هو التعريف الاخير واما سائر المعاني فقد روعي فيها الجهات الخلقية والتربوية وهي جهات معنويّة لا تتصل باللفظ وتأليف الكلام وحتى ان هذه المعاني للبلاغة كانت آنذاك أشهر من معناها الاصطلاحي ولذلك كانت أول ما وصلت الى ذهن عمرو بن العبيد وكان المعنى الاصطلاحي هو المعنى الاخير لها.

كذلك اذا تأملنا في كتاب الجاحظ وجدنا انه لم يكن يُعَرف موضع البلاغة من العلوم ولم يُعلم أهي من العلوم الادبية أو الدينية أو من علوم العرب أو العجم فلذلك نشاهد ان بعض الناس كانوا يراجعون الطوائف المختلفة كي يتبينوا موضعها، فمن ظن البلاغة من العلوم الدينية أو الاخلاقية راجع الامام الصادق عليه السلام فاجاب الامام عليه السلام: من عرف شيئاً قل كلامه فيه وانما سُمي البليغ (بليغاً) لانه يبلغ حاجته باهون سعيه[٢٥]، ومن ظنها من العلوم اللغوية راجع الاعراب في قبائلهم شأن علماء اللغة طلباً للالفاظ الفصيحة ومعانيها[٢٦]، ومن سأل الرومي أو الفارسي أو الهندي عن معناها ظنها من علوم الاجانب[٢٧]، إلّا ان غالب هؤلاء كانوا ممن هاجروا الى المدن العربية كبغداد والبصرة والكوفة وان ما عرفوه من البلاغة قلما زاد على ما عرفه غيرهم في تلك المدن.

روى الجاحظ عن رجل يُعرف بأبي الأشعث انه قال: «قلت لِبهلة الهندي ايام اجتلب يحيى بن خالد اطباء الهند مثل مَنكة وبازيكر وقِلبِرقل وسندباذ وفلان وفلان: ما البلاغة عند اهل الهند؟ قال بهلة: عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة ولكن لا احسن ترجمتها لك ولم أُعالج هذه الصناعة فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها، قال ابو الاشعث، فلقيتُ بتلك الصحيفة التراجمة فاذا فيها...»[٢٨]. وبعد ذلك اتى الجاحظ بترجمة تلك الصحيفة وما فيها بعضه يتعلق بصفات الخطيب وبعضه باقتضاء الحال وبعضه الآخر باختيار الالفاظ وتأليف الكلام ومما جاء فيها هو أن يعتني الخطيب بصناعة المنطق والمنطق من علوم اليونانيين لا الهنود فيعترينا الشك في ان تلك الصحيفة كانت حقاً قد أُتي بها من الهند.

من مجموع ما ورد في كتاب البيان والتبيين تعريفاً للبلاغة يظهر لنا ان هذا الاصطلاح كان يطلق في البداية على معنيين أحدهما هو الكلام المقتضي للحال يعني ما تصدى له بعد ذلك علم المعاني وبحث عن قواعده، والثاني ميزات في الكلام تجعله على مستوى أعلى وأرفع من الكلام العادي ولغة المحادثة وهذه الميزات بُحث عنها في علمي البيان والبديع من كُتُب البلاغة ويبدو ان عبد القاهر الجرجاني ـ رحمه الله ـ كان على علم بهذا الفرق بين المعنيين اذ اتى بمباحث المعاني في كتابه «دلائل الاعجاز» وبحث عن قواعد علم البيان في كتابه الآخر «اسرار البلاغة». كما تبعه السكاكي في كتابه «مفتاح العلوم» إلّا انّ السكاكي حاول ان يوفق بين هذين المعنيين ويربط أحدهما بالآخر فتراه ـ كما يبدو من تلخيص المفتاح للخطيب القزويني ـ يعرّف أولاً فصاحة الكلام ويعد من جملة شروطها خلوص الكلام من التعقيد وبعد ذلك يعرّف البلاغة بانها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ثم يقول في تعريفه لعلم البيان: ان الغرض منه هو الاحتراز عن التعقيد المعنوي فيجعل علم البيان تابعاً لعلم المعاني بواسطتين ونظر السكاكي هذا لا يخلو من نقد واشكال، فاولاً ليست هناك علاقة واضحة ومباشرة بين التعقيد ومسائل التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية التي يُبحث عنها في علم البيان بل نفس هذه الصناعات قد تكون باعثةً على التعقيد اذا كانت بعيدة المأخذ متكلفة الانشاء، وثانياً ان

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

المعنى قد يكون بصفة يظهر فيها التعقيد حسناً ومناسباً لموضع الحال كالتعقيد الذي تراه في هذا البيت للفرزدق الشاعر الاموي:

وما مِثله في الناس إلّا مملكاً

ابو امه حي ابوه يُقاربه

وفيه تقديم وتأخير أوجبا التعقيد في معناه واذا جعلت كل كلمة في مكانها زال التعقيد واصبح المعنى: ما مثله في الناس حي يقاربه إلّا مملكاً ابو امه ابوه، والبيت من قصيدة يمدح فيها الفرزدق ابراهيم بن هشام بن اسماعيل المخزومي خال هشام بن عبد الملك[٢٩] ولأجل هذا التعقيد اعتبره ائمة البلاغة بيتاً غير فصيح وغير بليغ[٣٠]، ولكني شخصياً ارى هذا التعقيد مقتضياً وحسناً لمكان المعنى فان معنى البيت في غاية البساطة والابتذال بحيث لو اتى الشاعر به واضحاً لظهر قبيحاً غير مقبول فعقده دفعاً لهذا القبح وليمكث القارئ فيه ويكشف المعنى بالتأمل والتدقيق فيلتذ بكشفه عن المعنى ويذهل عن ابتذاله فهذا البيت بليغ وبلاغته من نفس التعقيد الذي فيه.

اني ارى ان السكاكي كان بامكانه ان يربط بين هذين المعنيين لاصطلاح البلاغة بشكل ابسط واسهل وهو ان يقول: إن للبلاغة معنيين عاماً وخاصاً، معناه العام هو الذي تصدى لبيانه علم المعاني أي انطباق الكلام على ما تقتضيه الحال مهما كانت تلك الحال، ومعناه الخاص انطباق الكلام على معنىً شريف ورفيع يقتضي بياناً ارفع في مستواه من لغة المحادثة والكلام العادي، وارتفاع المعنى هو أحدى الحالات التي تستدعي نوعاً من الكلام خاصاً بها في علم المعاني، قالوا: ان السكاكي درس أولاً الفلسفة واستولت الفلسفة على تفكيره وهو من اجل هذا يريد ان يجعل الفلسفة حكماً في كل علم فلذلك يعتقد البعض انه عقّد على المتعلمين طرق البلاغة ووضع لهم العراقيل دون الوصول اليها[٣١].

والحق انه بغض النظر عن مواضع من كتابه كان أول من حدد انواع علوم البلاغة وضبطها ضبطاً دقيقاً كمواد علمية متقررة وثابتة[٣٢] كما نتصورها اليوم وآثار الماضين تفقد كثيراً من هذه الخصائص والميزات.

والآن نقوم بدراسة الآراء المطروحة حول البلاغة من كتاب البيان والتبيين للجاحظ وقد قسمنا ما نكتبه قسمين أولهما قسم المعاني والثاني قسم البيان:

الف ـ المعاني: خلافاً لما في المفتاح وتلخيصه من ان البلاغة يجب ان يكون مع فصاحة الكلام فان الامر ليس كذلك في كل مواردها والكلام كما سوف نلاحظ قد يكون ملحوناً وفي الوقت نفسه مطابقاً لما تقتضيه حالات وظروف خاصة به واقتضاء الحال يمكن تقسيمه الى حال المتكلم وحال المخاطب وحال الزمان والمكان وحال المعنى:

١ ـ حال المتكلم: نظراً لكون المتكلم من أي طبقة اجتماعية أو ان يعيش في اية حالة من الظروف الحضارية وكونه ذكراً أو انثى فان مستوى كلامه يتفاوت قليلاً أو كثيراً مع الآخرين وذلك كما يقول الجاحظ في موضع من كتابه: «وكما لا ينبغي ان يكون اللفظ عامياً ساقطاً فكذلك لا ينبغي ان يكون غريباً وحشياً إلّا ان يكون المتكلم بدوياً اعرابياً فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي وكلام الناس في طبقات»[٣٣].

ويقول في موضع آخر: «ومتى سمعت ـ حفظك الله ـ بنادرة من كلام الاعراب فاياك ان تحكيها إلّا مع اعرابها ومخارج الفاظها، فانك ان غيرتها بأن تلحن في اعرابها واخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضلٌ كبير وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ومُلحة من مُلح الحُشْوَة والطّغام فاياك وان تستعمل فيها الاعراب أو تخير لها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً فان ذلك يفسد الامتاع

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

بها وتخرجها من صورتها ومن الذي أُريدت له ويذهب استطابتهم اياها واستملاحُهم لها»[٣٤].

وفي موضع آخر يقول: واللحن من الجواري الظّراف ومن الكواعب النّواهد ومن الشواب الملاح ومن ذوات الخدور الغرائر أيسر وربما استملح الرجل ذلك منهن ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف...»[٣٥]. وواضح ان مراد الجاحظ من اللحن هو الخطأ في الاعراب أو في التنطق باللفظ وربما تكون الآية: ﴿أَوَمَن يُنشَّؤا فِي الحِلِيةِ وهو فِي الخِصَامِ غيرُ مُبين﴾[٣٦] فيها اشارة الى هذا التساهل على البنات الصغار في كلامهن اشارةً ضمنيّةً.

يروي الجاحظ عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس انه ذكر بلاغة بعض اهله فقال: اني لاكره ان يكون مقدار لسانه فاضلاً على مقدار علمه[٣٧]. ومع ذلك قد روى عن سهل بن هارون[٣٨] انه قال: لو ان رجلين خطبا أو تحدثا أو احتجا أو وصفا وكان أحدهما جميلاً جليلاً وبهياً ذا لباسٍ نبيلاً وذا حسب شريفاً وكان الآخر قليلاً قميئاً وباذ الهيئة دميماً وخامل الذكر مجهولاً ثم كان كلاهما في مقدار واحد من البلاغة وفي وزن واحد من الصواب لتصدع (لتفرق) عنهما الجمع وعامتهم تقضي للقليل الدميم على النبيل الجسيم... ولشغلهم التعجب منه على مساواة صاحبه له...»[٣٩]. ويبدو ان اصحاب المقامات قد انتفعوا بقول سهل بن هارون هذا فان ابا الفتح الاسكندري في مقامات بديع الزمان وابا زيد السروجي في مقامات الحريري مثلاً رجلان بائسان ذوا اطمار بالية رثة يظهران في المجامع ويُدهشانِ الناس باقوالهم البليغة الخاطفة من نثر ونظم وانما تأتي الناس هذه الدهشة والاعجاب من عدم الاتفاق بين حالتهما الظاهرة التي لا تدل على شيء من الكمال وواقع حالهما الذي هما فيه من الفضل والادب.

٢ ـ حال المستمع: يجب على المتكلم ان يطابق بين كلامه وحال المخاطب والمستمع كما يقول الجاحظ: ينبغي للمتكلم ان يعرف اقدار المعاني ويوازن بينها وبين اقدار المستمعين وبين اقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ولكل حالة من ذلك مقاماً...»[٤٠].

وجاء في الصحيفة الهندية التي أورد الجاحظ ترجمتها من جملة شروط الخطيب ان: «لا يكلم سيد الامة بكلام الامة ولا الملوك بكلام السوقة ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة ولا يدقق المعاني كل التدقيق ولا ينقح الالفاظ كل التنقيح ولا يصفيها كل التصفية ولا يهذبها غاية التهذيب ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيماً أو فيلسوفاً عليماً»[٤١]. وجاء في موضع آخر من الصحيفة: «ومدار الامر على افهام كل قوم بمقدار طاقتهم والحمل عليهم على اقدار منازلهم»[٤٢]. وذلك كقول الجاحظ في موضع آخر: «وكما لا ينبغي ان يكون الكلام عامياً، ساقطاً، سوقياً فكذلك لا ينبغي ان يكون غريباً وحشياً إلّا ان يكون المتكلم بدوياً اعرابياً فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي وكلام الناس في طبقات»[٤٣]. بيد انه ورد في صحيفة بشر بن المعتمر[٤٤] وهي مما أورده الجاحظ في كتابه: «ان أمكنك ان تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك الى ان تُفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها الالفاظ الواسطة التي لا تلطف على الدهماء ولا تجفو عن الاكفاء فانت البليغ التام»[٤٥].

ويقول في صفة بلاغة رسول الله صلى الله عليه وآله:

«... ولا يلتمس اسكات الخصم إلّا بما يعرفه الخصم»[٤٦]. ويجدر هنا بالذكر ان الآية: ﴿ولا تجعلوا دُعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾[٤٧] قد تشير الى اعتبار حال المخاطب في الكلام.

٣ ـ حال الزمان والمكان: الزمان والمكان يقتضيان الايجاز حيناً والاطالة حيناً آخر وفي هذا المعنى أورد الجاحظ أولاً بيتاً لابي دؤاد جرير الايادي وهو:

يرمون بالخُطب الطِوال وتارةً

وحيَ الملاحظ خيفةَ الرقباء

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

ثم قال: فمدح «الشاعر» كما ترى الاطالة في موضعها والحذف في موضعه»[٤٨].

وكذلك ان الاسلوب المحمود في موضع أو زمان ربما كان غير محمود في غير ذلك الموضع أو الزمان وفي هذا المعنى يقول الجاحظ: «وأكثر الخطباء لا يتمثلون في خطبهم الطوال بشيء من الشعر ولا يكرهونه في الرسائل إلّا ان تكون (الرسائل) الى الخلفاء»[٤٩].

ويروي عن بعض اهل الهند في تعريف البلاغة من قوله: «المعرفة بمواضع الفرصة... والمعرفة بساعات القول»[٥٠]. ويأتي بكلامٍ لابن المقفع ومنه: فاما الخُطب بين السماطين وفي اصلاح ذات البين فالاكثار في غير خطل والاطالة في غير املال[٥١]. يعني الاكثار من القول اذا كان موجهاً الى جمهور من الناس محمود شريطة ان لا يكون سبباً لخطأ أو سهو للخطيب وملل وسآمة للمخاطبين، كما يروي في موضع آخر عن هيثم بن عدي من قوله: «وكانوا يستحسنون ان يكون في الخُطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن فان ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وحسن الموقع»[٥٢]. وفي موضع آخر عن غيره: «والسنة في خطبة النكاح ان يطيل الخاطب ويقصر المجيب»[٥٣].

الكلام الذي لا يُراعى فيه حال الزمان والمكان قد يكون باعثاً على الضحك والسخرية كما روى الجاحظ عن بعض المتسولين انه قال: دخل فلان على كسرى فقال: اصلحك الله! ما تأمر في كذا وكذا»[٥٤]. وروى عن رجل من وجوه البصرة: حدثت حادثة ايام الفرس فنادى كسرى: «الصلوة جامعة!»[٥٥].

٤ ـ حال المعنى: في هذا الفصل مبحثان احدهما ان ينتقل المعنى الى المخاطب واضحاً بلا نقص ولا زيادة والثاني ان يكون مستوى الكلام موازناً وملائماً للمعنى، المورد الاول هو الذي يُبحث عنه في علم المعاني من كتب البلاغة كما يُبحث عن اهم مقومات المورد الثاني في علم البيان اذا كان المعنى شريفاً رفيع المستوى.

في بداية الجزء الثاني من كتابه اتى الجاحظ بترجمة صحيفة بهلة الهندي ونقرأ فيها: «مِن علم حق المعنى ان يكون الاسم (اللفظ) له طبقاً وتلك الحال له وفقاً ويكون الاسم (اللفظ) له لا فاضلاً ولا مفضولاً ولا مقصراً ولا مشتركاً ولا مضمناً»[٥٦]. وبعد ذلك يروي كلمات قصار في بيان اتفاق اللفظ والمعنى من عدة اشخاص كما يروي عن الاصمعي انه قال: «البليغ من طبّق المفصِل»[٥٧]. وقد أخذ هذا التعبير عن مهارة الجزارين في قطع اللحوم لانهم يعرفون مكان المفصل في كل موضع من اللحم فيضعون السكين في نفس الموضع فيصل على الفور الى المفصل وينقطع اللحم ويروي عن اعرابي كان يصف بلاغة اعرابي آخر انه قال: «كان والله يضع الهناء مواضع النقب»[٥٨]. الهناء القطران والنقب جربُ البعير وهذا التعبير اخذه الاعرابي عن مهارة حذاق البياطرة آنذاك اذ كانوا يعرفون آثار المرض على جسم الحيوان أولَ ما تبدو فيُطلونها بالقطران لئلا يتعدى المرض الى سائر الجسم ومراد ذلك الاعرابي هو ان الذي وصفه بالبلاغة كان يعرف مكان المعنى والكلام الملائم له بدقة فيأتي لكل معنى بكلام لا يزيد عليه ولا ينقص عنه. وكذلك يقول الجاحظ في موضع آخر: ويقولون اصاب الهدف اذا اصاب الحق في الجملة... ومن ذلك قولهم: «فلان يفلّ الحزّ ويُصيب المُفصِلَ ويضعُ الهِناءَ مواضِعَ النقبِ»[٥٩]. فلذلك اذا لم يكن هناك دليل على اطالة الكلام فالايجاز فيه محمود وفي هذا المعنى روى الجاحظ عن ابن المقفع قولاً جاء فيه: فعامة ما يكون من هذه الابواب (في الحديث والاحتجاج والخطب)، الوحي فيها والاشارة الى المعنى والايجاز هو البلاغة[٦٠]. وروى عن ثمامة بن اشرس[٦١]: «قلت لجعفر بن يحيى[٦٢]: ما البيان؟ قال: ان يكون الاسم (اللفظ) يُحيط بمعناك ويجلي عن مغزاك وتخرجه من الشركة ولا تستعين عليها بالفكرة والذي

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

لابد منه ان يكون سليماً من التكلف بعيداً من الصنعة بريئاً من التعقيد غنياً عن التأويل»[٦٣]. فنلاحظ من هذا القول لجعفر بن يحيى انه في رعاية حال المعنى يجب الاحتراز عن التكلف والصنعة والتعقيد ولا شك في ان وضوح المعنى ودقته يحتاج فيهما الى رعاية الاصول والقواعد التي يُبحث عنها في علم المعاني من قبيل احوال الاسناد الخبري واحوال المسند اليه والمسند واحوال متعلقات الفعل والقصر وغير ذلك إلّا ان الذي يتمتع بالذوق السليم والقريحة المستقيمة يستمد من تلك القواعد في كلامه بشكل طبيعي وفطري، اما دراسة علم المعاني والاطلاع على دقائقه فلا شك في اثره البالغ في الكتابة والانشاء وفي الخُطبِ والاشعار.

اما المبحث الثاني من هذا الفصل وهو تلاحم مستوى الكلام بالمعنى وموازنته له فنشاهد في كتاب الجاحظ اشارات عديدة اليه كما يقول في موضع: «اني ازعم ان سخيف الالفاظ مشاكل لسخيف المعاني وقد يُحتاج الى السخيف في بعض المواضع وربما امتع بأكثر من امتاع الجزل الفخم ومن الالفاظ الشريفة الكريمة المعاني كما ان النادرة الباردة جداً قد تكون اطيبَ من النادرة الحارة جداً»[٦٤].

وكما يتحدث في موضع آخر عن قسمة اقدار الكلام على اقدار المعاني[٦٥] ومشاكلة اللفظ للمعنى ونقرأ في صحيفة بشر بن المعتمر[٦٦] التي ضمنها الجاحظ كتابه: «ان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف»[٦٧]. ويُستدل مما يرويه الجاحظ من الفكاهات واحاديث النوكي انه اذا لم يراعِ القائل هذا التلاحم فيما يقول فكلامه قد يكون موضعاً للضحك والسخرية ومن تلك الفكاهات رسالة أحدهم باسم مولى البكرات الفلوشكي الى اصدقاء له يعتذر فيها عن تركه الحضور في موعد حددوه له[٦٨].

ب ـ البيان: البلاغة بهذا المعنى كما اشرنا سابقاً هي ان تكون للانسان ملكة يقتدر بها على الاتيان بكلام ارفع في مستواه من الكلام العادي ولغة المحادثة ففي لغة المحادثة تترصّف الالفاظ والعبارات ويتلو بعضها بعضاً حسبما تنشأ المعاني في الذهن وليس هناك في تقديم بعض الالفاظ على بعض أو تأخيرها عنها تفكير سابق على اللفظ والقول واما في الكلام البليغ فيفكر القائل فيه قبل ان ينطق به ويتخير اللفظ والتركيب ليبدو ما يقوله جميلاً يؤثر في المخاطب وهذا الجمال والتأثير قد يأتيان من قبل اختيار الالفاظ وتركيب بعضها مع بعض وقد يأتيان علاوةً على ذلك من قبل الاستمداد من قواعد علم البيان والوان البديع وحتى في الشعر فان نفس الوزن والقافية دليل البلاغة فيه كما روى الجاحظ عن ابن المقفع من قوله: «ومنها ما يكون شعراً»[٦٩]. إلّا ان تكون تراكيب الالفاظ واختيارها من الوهن والركاكة بدرجة تلقي الستار على اثر الوزن والقافية فيه فشعر مثل ذلك لا يتصف بالبلاغة.

الكلام البليغ بهذا المعنى يجب ان يكون لبيان معنى شريف رفيع المستوى وان كان المعنى مبتذلاً سخيفاً فجئت به في كلام بليغ كان كلامك اما قبيحاً واما باعثاً على الضحك والسُّخرية كرسالة مولى البكرات الفلوشكي الآنفة الذكر، نعم اذا كان مراد القائل من كلام مثل ذلك السخرية والاستهزاء أو الفكاهة ربما بدا كلامه محموداً يقبل منه، ومن امثلة ذلك قول المتنبي الشاعر العباسي في رثاء جرذ قتله اعرابيان:

لقد اصبح الجرذ المستغير
اسير المنايا صريع العطب
رماه الكناني والعامري
وتلاه للوجه فعل العرب
كلا الرجلين اتّلا قتله
فايهما غلّ حرّ السلب
وايكما كان من خلفه
فان به عضّةً في الذنب[٧٠]

فهذه الابيات كلها ـ كما نلاحظ ـ فصيح وبليغ في الفاظها وتراكيبها لكن المغنى مبتذل وسخيف ومع ذلك

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

فانك تراهاً شعراً مستحسناً مقبولاً وليس ذلك إلّا لما قصده الشاعر من الفكاهة والاستهزاء بالاعرابيين.

يروي الجاحظ عن بعض الاعراب ما يدل على انهم كانوا يستخدمون الكلام البليغ فطرياً في كل ما يريدون سواء كان المعنى شريفاً ام مبتذلاً سخيفاً[٧١] فهؤلاء الاعراب ايضاً ما كانوا يعابون على الاتيان بالكلام البليغ في المعنى السخيف المبتذل.

في علم البيان كما نعلم هناك مسائل التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية لكن الكلام البليغ ليس دائماً كلام استُخدم فيه هذه الاشياء والجاحظ انما يروي في تعريفه عن الآخرين تعبيرات من مثل تخير اللفظ[٧٢] واختيار الكلام[٧٣] وهي تشمل التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية ايضاً كما تشمل الوان البديع لان الاديب ينتفع بها في كلامه حيثما يقتضيها المقام وواضح ان مسائل فن البيان لم تكمل بعد في عصر الجاحظ بحثاً وتحقيقاً ولم تتميز اصوله بعضها من بعض فالكلام البليغ هو الذي ارتفع مستواه عن لغة المحادثة واستخدم في بيان معنى رفيع يناسب مستواه اللفظي وارتفاع اللفظ قد يكون مستمداً فيه من قوانين البيان والوان البديع وقد يكون في اختيار الالفاظ والتعابير الخاصة به وحتى استعمال بعض الافعال الناقصة من قبيل اصبح ومازال وظل ومادام وافعال المقاربة وبعض المنصوبات من مثل المفعول المطلق والمفعول له والمفعول معه والحال المفردة والتمييز في الكلام يجعله بليغاً لان هذه الاشياء قلما وردت في لغة المحادثة منذ عصر المولّدين ويتضح هذا المعنى من نماذج من الكلام البليغ التي اخذها الجاحظ من اقوال البلغاء وضمّنها كتابه.

ان الشروط الاساسية للكلام البليغ حسبما يُستفاد من الاقوال المتناثرة في كتاب الجاحظ هي:

١ ـ سلامة القول: الشرط الاول هو ان يكون الكلام سليماً بالنظر الى قوانين اللغة من الصرف والنحو والاعراب. والجاحظ أورد في هذا المعنى قولاً من كلثوم بن عمرو العتابي[٧٤] ثم علق عليه من عند نفسه ونصه: «والعتابي حين زعم ان كل من افهمك حاجته فهو بليغ لم يعنِ ان كل من افهمنا من معاشر المولّدين والبلديين قصده ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته والمعروف عن حقه انه محكوم له بالبلاغة كيف كان بعد ان نكون قد فهمنا عنه...»[٧٥]. وفي الوقت نفسه نرى الجاحظ يصف عدداً من البلغاء باللحانين[٧٦]. وواضح ان هؤلاء كان يجري اللحن على لسانهم بعض الاحيان وطبيعي ان الانسان مهما كان بارعاً في صنعته قد يُخطئ فيها وليس بريئاً من الخطأ في جميع الاحيان.

٢ ـ الاحتراز من التكلف والتعقيد: روى الجاحظ عن ثمامة[٧٧] انه قال: «قلت لجعفر بن يحيى[٧٨]: ما البيان؟ قال: ان يكون الاسم يحيط بمعناك ويجلّي عن مغزاك وتخرجه من الشركة ولا تستعين عليه بالفكرة والذي لابد منه ان يكون سليماً من التكلف بعيداً من الصنعة، بريئاً من التعقيد، غنياً عن التأويل»[٧٩]. ثم اضاف الجاحظ بقوله: «وهذا هو تأويل قول الاصمعي: «البليغُ من طبق المفصِل واغناك عن المفسر»[٨٠]. كما نقرأ في صحيفة بشر بن المعتمر[٨١] ايضاً: «... ومهما أخطأك لم يخطئك ان يكون (الكلام) مقبولاً قصداً وخفيفاً على اللسان سهلاً وكماء خرج من ينبوعه ونجمَ من معدنه واياك والتوعر فان التوعر يُسلمك الى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين الفاظك»[٨٢]. إلّا ان بشراً هذا قد رخص في صحيفته للاديب التكلف اذا كان بارعاً في صنعته حيث يقول: «وانك اذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك أحد وان انت تكلفتها ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ولا محكماً لسانك بصيراً بما عليك ومالك عابك من انت اقل عيباً منه ورأى من هو دونك انه فوقك»[٨٣].

وفي موضع آخر يصف الجاحظ بلاغة كتاب الدواوين قائلاً: «اما انا فلم أر قوماً قط أمثل طريقةً في

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

البلاغة من الكتاب فانهم قد ألتمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً»[٨٤].

في نهاية هذا البحث تجدر الاشارة الى تعريف للبلاغة من ابن المقفع غير ما جاء عنه في كتاب الجاحظ وهو قوله: «البلاغة هي التي اذا سمعها الجاهل ظن انه يُحسِن مثلها»[٨٥]. ومراده من هذا التعريف هو الكلام السهل الممتنع الذي يدل على كمال صاحبه في البلاغة كما يلاحظ هذا المعنى بوضوح في ترجمة ابن المقفع لكتاب كليلة ودمنة.

٣ ـ وضوح المعنى: الكلام البليغ يجب ان يكون واضح الدلالة على المعنى فلا يكون معتلاً ولا مضمناً ولا مشتركاً قابلاً للتأويل[٨٦] بل يكون معناه ظاهراً مكشوفاً وقريباً معروفاً[٨٧] يغني المستمع عن الاعادة والتكرار وفي هذا يقول الجاحظ: جعل ابن السماك[٨٨] يوماً يتكلم وجارية له حيث تسمع كلامه فلما انصرف اليها قال لها: كيف سمعتِ كلامي؟ قالت: ما أحسنه لولا انك تُكثِر ترداده فقال: أُردّدُه حتى يفهمه من لم يفهمه قالت: الى ان يفهمه من لم يفهمه قد ملَّه من فهِمَه[٨٩]. ويروي عن قتادة انه قال: مكتوب في التوراة: «لا يُعاد الحديث مرتين»[٩٠]. وعن الزهري: «اعادة الحديث اشدّ من نقل الصخر»[٩١].

لا شك في ان الكتابات العادية لا يُحمد فيها اعادة القول وتكرار الكلام واما في الخطب والقصص والسير التي يُراد بها العبرة والتأثير في نفوس السامعين ربما حسن التكرار فيها ولذلك نرى الجاحظ يدافع عنه ويقول: «قد رأينا الله عز وجل ردّد ذكر قصة موسى وهود وهارون وشعيب وابراهيم ولوط وعاد وثمود وكذلك ذكر الجنة والنار وامور كثيرة لانه خاطب جميع الامم من العرب واصناف العجم وأكثرهم غبيّ غافل أو معاند مشغول الفكر ساهي القلب واما حديث القصص والرقة فاني لم ار أحداً يعيب ذلك فيها وما سمعنا باحد من الخطباء كان يرى اعادة بعض الالفاظ وترداد المعاني عيباً...»[٩٢].

٤ ـ موازنة اللفظ للمعنى: يجب في الكلام البليغ الاحتراز من السلاطة والهذر وكذلك من الاسهاب والاكثار بل يجب ان لا يزيد على المعنى بشيء ولا ينقص عنه واذا استطعت ان تأتي بالمعنى الكثير في اللفظ اليسير فهو احمد طرق البلاغة ويسمى ايجازاً[٩٣]. وحتى ابن المقفع اعتبر البلاغة في الوحي والاشارة الى المعنى[٩٤] وكذلك يحسن الاحتراز من الاعتراض في اثناء الكلام، يقول الجاحظ: «حدثني صديق لي قال: قلت للعتابي[٩٥] (كلثوم بن عمرو) ما البلاغة؟ قال: كل من أفهمك حاجته من غير اعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ... فقلت له: قد عرفت الاعادة والحبسة فما الاستعانة؟ قال: أما تراه اذا تحدث قال عند مقاطع كلامه: يا هناه ويا هذا ويا هية واسمع مني واستمع الي وافهم عني، أولست تفهم؟ أولست تعقل؟ فهذا كله وما اشبهه عيّ وفساد»[٩٦].

٥ ـ مسايرة البلغاء في كلامهم: يجب في الكلام البليغ ان يكون مشابهاً ونظيراً لكلام البلغاء في كل عصر ومستخدماً فيه نفس الالفاظ والتراكيب التي يستخدمونها هم فيما يقولون أو يكتبون وفي هذا المعنى يروي الجاحظ: وقال اهل مكة لمحمد بن مناذر الشاعر (البصري): ليست لكم معاشر اهل البصرة لغة فصيحة، انما الفصاحة لنا اهل مكة فقال ابن المناذر: اما الفاظنا فأحكى الالفاظِ للقرآن وأكثرها له موافقةً فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم، انتم تسمّون القدر برمَة وتجمعون البرمة على بِرام ونحن نقول: قِدر ونجمعها على قدور وقال الله عز وجل: ﴿وجفان كالجواب وقدور راسيات﴾ وانتم تسمّون البيت اذا كان فوق البيت عليَّة وتجمعون هذا الاسم على علالي ونحن نسميه غرفة ونجمعها على غرفات وغرف وقال الله تبارك وتعالى: ﴿غُرفٌ مِن فوقِها غُرفٌ مبنية﴾ وقال: ﴿وهم في الغرفاتِ آمِنون﴾ وانتم تسمّون الطلّع: الكافور والاغريض ونحن

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

نسميه: الطلّع وقال الله عز وجل: ﴿ونخلٍ طلعُها هضيمٌ﴾[٩٧].

وبعد ذلك يذكر الجاحظ الفاظاً اخرى غير فصيحة في كلام اهل المدينة والبصرة والكوفة من امثال خِربِز بمعنى البطيخ وبال بمعنى المسحاة وجهارسوج بمعنى المربعة ووازار بمعنى السوق وخيار بمعنى القثّاء[٩٨]. وهذه الالفاظ الفاظ فارسية كانت شائعةً آنذاك على ألسنة ساكني تلك المدن في محاوراتهم اليومية إلّا ان استخدامها في الكلام العربي يخرجه من صفة البلاغة العربية.

٦ ـ الاحتراز من التنافر: هذا الشرط اعتُبِر في آثار المتأخرين شرطاً من شروط الفصاحة التي تعتبر مقدمة البلاغة[٩٩]. وهو ان تكون الحروف في الالفاظ وكذلك الالفاظ في العبارات متوافقةً ومتلاءمةً بحيث تجرى بسهولة على اللسان وفي هذا المعنى روى الجاحظ عن الاصمعي: ومن الفاظ العرب الفاظ تتنافر وان كانت مجموعةً في بيت شعر لم يستطع المنشد انشادها إلّا ببعض استكراه فمن ذلك قول الشاعر:

وقبر حربٍ بمكانٍ قفرِ
وليس قرب قبر حربٍ قبرُ[١٠٠]

كما روى في المعنى نفسه بيت شعر من انشاد خلف الاحمر[١٠١] وهو:

وبعضُ قريضِ القومِ أولادُ علة
يكدُّ لسانَ الناطقِ المتحفظِ

واضاف: اما قول خلف: «وبعض قريض القوم أولاد علة» فانه يقول: اذا كان الشعر مستكرهاً وكان الفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلاً لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات واذا كانت الكلمة ليس موقعها الى جنب اختها مرضياً موافقاً، كان على اللسان عند انشاد ذلك الشعر مؤونة واجود الشعر ما رأيته متلاحم الاجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك انه أُفرغ افراغاً واحداً وسُبِك سبكاً واحداً فهو يجري على اللسان كما يجري الدِهان[١٠٢]. وفي اقتران الحروف وتلاحمها يقول الجاحظ: فاما في اقتران الحروف فان الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا العين بتقديم ولا تأخير والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا تأخير[١٠٣] والحاصل ان هذا التنافر في الحروف والفاظ العبارات واجزاءها ضار بفصاحة القول وبلاغة الكلام.

٧ ـ جودة الابتداء: يحسن في الكلام البليغ ابتداءه بشكل يروق المستمع والقارئ ويجتلب انتباههما وأحد الاساليب في ذلك ان يبدأ الكلام بذكر الله عز وجل وحمده، روى الجاحظ من كلام سهل بن هارون[١٠٤] في صدر كتاب له انه: واجب على كل ذي مقالة ان يبتدئ بالحمد قبل استفتاحها كما بدئ بالنعمة قبل استحقاقها[١٠٥]. وكذلك يحسن ان يكون الكلام في بدايته معلوماً موضوعه ومغزاه وما ينتهي به ويؤول اليه وهذا كما ورد في الصحيفة الهندية[١٠٦]: «ان يكون الكلام ذاكراً لما انعقد عليه في أوله»[١٠٧] وقد اتخذ هذا المعنى فيما بعد ـ كما هو معلوم ـ حالةً خاصةً له ومتكلفةً تسمى براعة الاستهلال وهو ان يستخدم المؤلف في مقدمة كتابه الفاظاً تشير ضمنياً الى موضوع الكتاب ومباحثه كما نقرأ في مقدمة كتاب المطول للتفتازاني: «الحمد لله الذي الهمنا حقائق المعاني ودقائق البيان وخصصنا ببدائع الايادي وروائع الاحسان» فنفهم من الفاظ المعاني والبيان والبدائع في هذه المقدمة ان الكتاب موضوعه علوم البلاغة من المعاني والبيان والبديع.

يروي الجاحظ عن شبيب بن شيبة من أوائل الخطباء للعصر العباسي انه كان يبدأ كلامه بحلاوة ورشاقة وسهولة وعذوبة[١٠٨]. وفي كلام لشبيب قد أُشير الى جودة القطع (الانتهاء) ايضاً[١٠٩].

٨ ـ تصحيح الاقسام[١١٠]: ان كان المعنى الذي يريد القائل بيانه ذا انواع واقسام يجب عليه أولاً وقبل كل

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

شيء ان يتأمل فيه ويخطط له ولعل هذا هو الذي سماه سهل بن هارون سياسة البلاغة ووصفها بانها اشدّ من البلاغة وبمنزلة التوقي على الدواء الذي هو اشد من الدواء[١١١]. لان الكلام اذا لم يكن مسبوقاً بالتأمل والتخطيط ربما دخله خلل أو سهو صعبت ازالته أو امتنعت.

٩ ـ اختيار اللفظ: في كتاب الجاحظ هناك كلمات شتى متناثرة ترمي الى اختيار اللفظ الملائم للمعنى والمناسب له وهي تشمل التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية ايضاً لان القائل البليغ ينتفع بها اينما رأى كلامه في مسيس الحاجة اليها كما يروي عن بعضهم في موضع ان الكناية والتعريض لا يعملان في العقول عمل الافصاح والتكشف[١١٢]. وفي موضع آخر يروي عن بعض اهل الهند قوله: أن تدع الافصاح بها (بالحجة) الى الكناية عنها اذا كان الافصاح أوعر طريقةً وربما كان الاضراب عنها صفحاً أبلغ في الدرك واحق بالظفر[١١٣] ويقول في موضع ثالث: فالقصد من ذلك ان تجتنب السوقي والوحشي[١١٤]. وذلك كما نقرأ في صحيفة بشر بن المعتمر: ان يكون الاسم (اللفظ) مقبولاً قصداً وخفيفاً على اللسان سهلاً وكماءٍ خرج من ينبوعه ونجم من معدنه واياك والتوعر فان التوعر يسلمك الى التعقيد[١١٥]. مضافةً الى صفات أُخرى للالفاظ المختارة من قبيل الرشاقة والعذوبة والفخامة والجزالة والحلاوة وغيرها[١١٦] مما تراه متناثراً في اثناء الكتاب.

١٠ ـ عامل القريحة والذوق الادبي: اعتبر الجاحظ القريحة الادبية عاملاً اساسياً في انشاء الكلام البليغ بحيث انه إذا لم يصدر الكلام عنها كانت النتيجة اما مثيرةً للضحك والسخرية واما على خلاف ما اريد به من المعنى والاثر الخطابي ويتضح هذا المعنى في كلام الجاحظ من الفكاهات والسخائف التي أوردها اثناء كتابه هنا وهناك، منها رسالة مولى البكرات الفلوشكي التي اشرنا اليها سابقاً[١١٧]، ولولا ركاكة تلك الفكاهات لاوردنا بعضاً منها اكمالاً لفائدة البحث. وهنا يبدو مناسباً ايراد كلام لابن الاثير الشيباني في المعنى نفسه وهو: «وملاك هذا كله الطبع فانه اذا لم يكن ثم طبع فانه لا تغنى تلك الآلات (قوانين البيان) شيئاً ومثال ذلك كمثل النار الكامنة في الزناد والحديدة التي يقدح بها. ألا ترى انه اذا لم يكن في الزناد نار لا تفيد تلك الحديدة شيئاً؟»[١١٨].

ونزيد في الختام ان الجاحظ يرى كلام الرسول ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ من خطب واحاديث من افضل مصاديق الكلام البليغ ويقول بعد ما يأتي بنماذج من كلامه ـ صلى الله عليه وآله ـ ما نصه: «... هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثرت معانيه وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف وكان كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وما انا من المتكلفين﴾ فكيف وقد عاب التشديق وجانب اصحاب التقعير واستعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر وهجر الغريب الوحشي ورغب عن الهجين السوقي فلم ينطق عن ميراث حكمة ولم يتكلم إلّا بكلام قد حُف بالعصمة وشيّد بالتأييد ويسر بالتوفيق، هو الكلام الذي القى الله عليه بالمحبة وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الافهام وقلة عدد الكلام ومع استغناءه عن اعادته وقلة حاجة السامع الى معاودته، لم تسقط له كلمة ولازلّت له قدم...»[١١٩]. ويتضح من مجموع ما قاله الجاحظ في صفة بلاغة الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ان كلامه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ هو الكلام السهل الممتنع الذي اتصف باعلى درجته القرآن الكريم وهو الاعجاز.

الهوامش

(١) من فضلاء المعتزلة والمفكرين والكتّاب في القرن الثالث الهجري توفي سنة ٢٥٥ هـ وخلّف مؤلفات عدة طبع ونشر كثير منها اشهرها البيان والتبيين والحيوان ورسائل الجاحظ. والبيان والتبيين فيه ابحاث في البيان والخطابة ومباحث اخرى متفرقة ـ جرجي زيدان ـ تاريخ آداب

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

اللغة العربية ـ ج ١ ـ ص ٤٧٥ وبعدها.

(٢) وردت هذه الآراء والنظرات أيضاً في كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني وكتاب الصناعتين لابي هلال العسكري وواضح ان ابن رشيق والعسكري اقتبسا هذه الآراء من الجاحظ بزيادات اضافا عليها من اقوال آخرين وفي الصناعتين شرح المؤلف كثيراً من الالفاظ والاصطلاحات التي وردت في التعاريف المختلفة للبلاغة.

(٣) آلبرماله: تاريخ الرومان. ترجمته الى الفارسية لزيرك زاده ص ١٢٣.

(٤) نفس المصدر: ص ١٢٦.

(٥) نفس المصدر: ص ٢٠١.

(٦) عامر بن الظَّرِب العَدواني، حكيم، خطيب، رئيس، من الجاهليين، كان امام مضر وحكمها وفارسها وممن حرم الخمر في الجاهلية وكانت العرب لا تعدل بفهمه فهماً ولا بحكمه حكماً وهو أحد المعمرين في الجاهلية وأول من قرعت له العصا وكان يقال له ذو الحلم وفيه قول الشاعر: ان العصا قرعت لذي الحلم. الاعلام. خير الدين الزركلي، ج ٤، ص ٢٠.

(٧) ابن رشيق. العمدة. ج ١. ص ٢٤٥.

(٨) نفس المصدر. ج ١. ص ٢٤٣.

(٩) محمد بن زياد المعروف بابن الاعرابي ابو عبد الله (١٥٠ ـ ٢٣١ هـ) راوية، ناسب، علامة باللغة من اهل الكوفة، كان احول، ابوه مولى للعباس بن محمد بن علي الهاشمي... مات بسامراء، له تصانيف كثيرة منها اسماء الخيل وفرسانها، تاريخ القبائل، النوادر في الادب. الاعلام، ج ٦، ص ٣٦٥ و ٣٦٦.

(١٠) صخار بن عياش (أو عباس) بن شراحيل بن منقذ العبدي (.. ـ نحو ٤٠ هـ) من بني عبد القيس، خطيب مفوّه، كان من شيعة عثمان له صحبة واخبار حسنة قال له معاوية: ما البلاغة؟ فقال الايجاز قال: وما الايجاز؟ قال: ان لا تبطئ ولا تخطئ وهو أحد النسابين وله مع دغفل النسابة محاورات وكان ممن شهد فتح مصر. الاعلام، ج ٣، ص ٢٨٧.

(١١) البيان والتبيين. ج ١. ص ١١٩ و ١٢٠.

(١٢) نهج البلاغة تصحيح الدكتور صبحي صالح الخطبة ١٤٩.

(١٣) الصناعتين. ص ٥١.

(١٤) شوقي ضيف. تاريخ الادب العربي. ج ٢ ص ٢٠٣.

(١٥) ابن رشيق. العمدة. ج ١. ص ٢٤٥.

(١٦) نفس المصدر.

(١٧) خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو بن الاحتم التميمي المنقري (.. ـ نحو ١٣٣ هـ) من فصحاء العرب المشهورين كان يجالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك وله معهما اخبار، ولد ونشأ بالبصرة وكان ايسر اهلها مالاً ولم يتزوج له كلمات سائرة، عاش الى ان ادرك خلافة السّفاح العباسي وحظِي عنده وكان لفصاحته اقدر الناس على مدح الشيء وذمّه وكان يعارض شبيب بن شيبة... الاعلام ج ٢ ص ٣٣٨.

(١٨) البيان والتبيين. ج ٣ ص ١١.

(١٩) نفس المصدر، ج ١، ص ١٢٠.

(٢٠) نفس المصدر ص ١١١.

(٢١) العمده، ج ١، ص ٢٤٥.

(٢٢) البيان والتبيين، ج ١، ص ١١١.

(٢٣) عمرو بن عبيد بن باب التيمي بالولاء ابو عثمان البصري (٨٠ ـ ١٤٤ هـ) شيخ المعتزلة في عصره ومفتيها واحد الزهاد المشهورين كان جده من سبي فارس وابوه نساجاً ثم شرطياً للحجاج في البصرة واشتهر عمرو بعلمه وزهده واخباره مع المنصور العباسي وغيره وفيه قال المنصور: كلكم طالب صيد غير عمرو بن عبيد، له رسائل وخطب وكتب منها التفسير والرد على القدرية، توفي بمران (بقرب مكة) ورثاه المنصور ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه وفي العلماء من يراه مبتدعاً، قال يحيى بن معين: كان من الدهرية الذين يقولون انما الناس مثل الزرع. الاعلام، ج ٥، ص ٢٥٢.

(٢٤) البيان والتبيين، ج ١، ص ١٣٧.

(٢٥) تحف العقول، ص ٣٥٩.

(٢٦) البيان والتبيين، ج ١، ص ١٢١.

(٢٧) نفس المصدر، ج ١، ص ١١١ وبعدها.

(٢٨) نفس المصدر، ج ١، ص ١١٥ و ١١٧.

(٢٩) مختصر المعاني أو المطول للتفتازاني، باب الفصاحة.

(٣٠) نفس المصدرين ودلائل الاعجاز للجرجاني، ص ٦٥.

(٣١) مقدمة شرح السعد (مختصر المعاني للتفتازاني) لمحمد محيي الدين عبد الحميد، ص ٢٨ و ٢٩.

(٣٢) المصدر السابق.

(٣٣) البيان والتبيين. ج ١. ص ١٧٠ و ١٧١.

(٣٤) نفس المصدر. ج ١. ص ١٧٢.

(٣٥) نفس المصدر. ص ١٧٣.

(٣٦) الزخرف (٤٣): ١٨.

(٣٧) البيان والتبيين، ج ١، ص ١٠٩.

(٣٨) سهل بن هارون بن راهبون (أو راهيون) ابو عمرو الدستميساني (.. ـ ٢١٥ هـ) كاتب بليغ حكيم من واضعي القصص يلقب «بزرجمهر الاسلام» فارسي الاصل، اشتهر في البصرة واتصل بخدمة هارون الرشيد وارتفعت مكانته عنده. الاعلام، ج ٣، ص ٢١١.

(٣٩) البيان والتبيين. ج ١. ص ١١٢.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

(٤٠) نفس المصدر. ص ١٦٦.
(٤١) نفس المصدر، ص ١١٦.
(٤٢) نفس المصدر، ص ١١٧.
(٤٣) نفس المصدر، ص ١٧٠ و ١٧١.
(٤٤) بشر بن المعتمر البغدادي ابو سهل (.. ـ ٢١٠ هـ)؛ فقيه، معتزلي، مناظر من اهل الكوفة، قال الشريف المرتضى: يقال: ان جميع معتزلة بغداد كانوا من مستجيبيه، تنسب اليه الطائفة «البشرية» منهم، له مصنفات في الاعتزال، مات ببغداد. الاعلام، ج ٢، ص ٢٨.
(٤٥) البيان والتبيين، ج ١، ص ١٦٤.
(٤٦) نفس المصدر، ج ٢، ص ١٨.
(٤٧) نور (٢٤): ٦٣.
(٤٨) البيان والتبيين. ج ١. ص ١٨٢.
(٤٩) نفس المصدر، ص ١٤٣.
(٥٠) نفس المصدر، ج ١، ص ١١١.
(٥١) نفس المصدر، ص ١٤٠ ومما روى الجاحظ عن ابن المقفع قوله في معنى البلاغة: «فمنها ما يكون في السكوت» أي ان البلاغة قد تقتضي السكوت والاحتراز من القول وهذا النوع من البلاغة يعني بلاغة الصمت لا يشمله ما جاء في كتب الادب تعريفاً للبلاغة ولعل التعريف الجامع والاشمل لها ان نقول مثلاً: هي رعاية مقتضى الحال فيما يرتبط بالكلام.
(٥٢) نفس المصدر، ص ١٤٣.
(٥٣) نفس المصدر، ص ١٤١.
(٥٤) نفس المصدر. ج ٣. ص ٣٥١.
(٥٥) نفس المصدر.
(٥٦) نفس المصدر، ج ١، ص ١١٦.
(٥٧) نفس المصدر، ص ١٢٩.
(٥٨) نفس المصدر.
(٥٩) نفس المصدر، ص ١٧٤. ورد في الصفحة ١٣٠ من الكتاب «يفل المعزّ» وهو موافق لما جاء في أساس البلاغة للزمخشري «اصاب المعزّ» ولعل الصحيح ههنا ايضاً يفل المعز ولا الحز والله اعلم.
(٦٠) نفس المصدر، ج ١، ص ١٤٠.
(٦١) هو ثمامة بن اشرس النميري مولاهم، كان من زعماء المعتزلة ورؤساءهم وكان قوي العارضة حاضر البديهة ذا لَسَن وبيان وهو رأس فرقة من فرق المعتزلة تسمى «الثمامية» قتله الخزاعيون في طريق مكة سنة ٢١٣ هـ البيان والتبيين ج ١ ص ١٢٨ على ذيل الصفحة للمصحح.
(٦٢) جعفر بن يحيى البرمكي وزير هارون الرشيد.
(٦٣) البيان والتبيين. ج ١. ص ١٢٩.
(٦٤) نفس المصدر، ص ١٧١.
(٦٥) نفس المصدر، ص ١٦٦.
(٦٦) راجع الرقم ٤٤.
(٦٧) البيان والتبيين ج ١ ص ١٦٣.
(٦٨) نفس المصدر، ج ٣ ص ٣٣٨ وجاء اسمه في الجزء الثاني من الكتاب ص ٢٥٩ مجنون البكرات وعلى ذيل الصفحة نفسها الفلوشكي البكراوي.
(٦٩) نفس المصدر، ج ١، ص ١٤٠.
(٧٠) ديوان المتنبي قافية الباء.
(٧١) انظر ج ٢ ص ٨٢ «اعرابي علم بنيه الـ..».
(٧٢) نفس المصدر. ج ١. ص ١٣٧ «قول عمر الشمري».
(٧٣) نفس المصدر، ص ١١١: قيل لليوناني ما البلاغة قال: تصحيح الاقسام...
(٧٤) كان شاعراً، خطيباً بليغاً مجيداً وهو من اهل قنسرين وقدم بغداد ومدح هارون الرشيد وغيره من الخلفاء وله رسائل مستحسنة، وكان العتابي منقطعاً الى البرامكة ومنصور النمري راويته وتلميذه.... وفيات الاعيان لابن خلكان ج ٤ ص ١٢٢الى ١٢٤.
(٧٥) البيان والتبيين، ج ١، ص ١٨٧.
(٧٦) نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٤٧ وبعدها.
(٧٧) ابن اشرس، راجع الرقم ٦١.
(٧٨) البرمكي.
(٧٩) البيان والتبيين، ج ١، ص ١٢٩.
(٨٠) نفس المصدر.
(٨١) راجع الرقم ٤٤.
(٨٢) البيان والتبيين. ج ١، ص ١٦٣.
(٨٣) نفس المصدر، ص ١٦٤.
(٨٤) نفس المصدر، ص ١٦٥.
(٨٥) احمد الهاشمي، جواهر الادب ص ٤٢١.
(٨٦) البيان والتبيين ج ٢، ص ١١٥.
(٨٧) نفس المصدر، ج ١، ص ١٦٣.
(٨٨) ابو العباس محمد الكوفي القاضي، أتى بغداد زمن هارون الرشيد ورجع الى الكوفة بعد مدة، كان رجلاً ذا لَسَن وفصاحة وصاحب امثال ومواعظ . دهخدا. لغت نامه بالفارسية.
(٨٩) البيان والتبيين ج ١ ص ١٢٧.
(٩٠) نفس المصدر، وقتادة هو ابو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي البصري الاكمة، كان من افاضل التابعين، مقصود الجانب، يحمل علمه الى الآفاق وكان قديراً على مذهب المعتزلة قيل انه هو الذي سماهم بهذا

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:33 IRDT on Monday August 31st 2020

الاسم، تصدر في مجلس الحسن البصري بعد وفاته وانتهج منهجه وكان على عماه يدور في البصرة اعلاها واسفلها بغير قائد، مات بواسط سنة ١١٧ هـ. البيان والتبيين، ج ١، ص ١٢٧ و١٢٨ على الذيل.

(٩١) نفس المصدر، ص ١٢٨ والزهري هو محمد بن مسلم الزهري القرشي كان من اعلام التابعين رأى عشرة من الصحابة وسمع منهم واخذ عنه جماعة من الائمة منهم مالك بن انس وسفيان الثوري وغيرهما وكان اذا جلس في بيته وضع كتبه حوله مشتغلاً بها عن كل أحد فقالت له زوجته، والله لهذه الكتب اشدّ علي من ثلاث ضرائر، مات سنة ١٢٤ هـ البيان والتبيين ج ١ ص ١٢٨ على الذيل.

(٩٢) نفس المصدر.

(٩٣) نفس المصدر، ص ٢١٥ و ١٤٠.

(٩٤) نفس المصدر، ص ١٤٠.

(٩٥) راجع الرقم ٧٤.

(٩٦) البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٧.

(٩٧) نفس المصدر، ص ٣٨.

(٩٨) نفس المصدر، ص ٣٨ و ٣٩.

(٩٩) انظر مثلاً مختصر المعاني للتفتازاني «تعريف الفصاحة».

(١٠٠) البيان والتبيين ج ١ ص ٨٧.

(١٠١) هو خلف بن حيان ابو محرز المعروف بالاحمر (.. ـ نحو ١٨٠ هـ) راوية عالم بالادب، شاعر من اهل البصرة كان ابواه مولين من فرغانة اعتقهما بلال بن ابي موسى الاشعري. قال معمر بن المثنى: خلف الاحمر معلم الاصمعي ومعلم اهل البصرة وقال الاخفش، لم ادرك أحداً اعلم بالشعر من خلف والاصمعي وكان يضع الشعر وينسبه الى العرب. له ديوان شعر وكتاب جبال العرب. الاعلام، ج ٢ ص ٣٥٨.

(١٠٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٨٩.

(١٠٣) نفس المصدر، ص ٩١.

(١٠٤) راجع الرقم ٣٨.

(١٠٥) البيان والتبيين ج ٢ ص ١١٥.

(١٠٦) انظر في الصفحة ٩.

(١٠٧) البيان والتبيين ج ١ ص ١١٦.

(١٠٨) نفس المصدر، ص ١٣٦.

(١٠٩) نفس المصدر.

(١١٠) نفس المصدر، ص ١١١: قيل للپوناني ما البلاغة قال: تصحيح الاقسام واختيار الكلام.

(١١١) نفس المصدر، ص ٢٢٠.

(١١٢) نفس المصدر، ص ١٤٢.

(١١٣) نفس المصدر، ص ١١١.

(١١٤) نفس المصدر، ص ٢٧٣.

(١١٥) نفس المصدر، ص ١٦٣.

(١١٦) راجع مثلاً ج ١ ص ١٢٩ و١٦٣ (صحيفة بشر بن المعتمر).

(١١٧) نفس المصدر، ج ٣، ص ٣٣٨ وراجع ايضاً ج ١، ص ١٨٧ «كلام النبطي» وج ٢، ص ٢٨٧.

(١١٨) المثل السائر ـ المقدمة ص ٤٠.

(١١٩) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٧ و١٨.

* * *

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی